القصائد المولدية

أقرأ القصائد البليغة التى جادت بها قرائح شعرائنا الابرار بمناسبة المولد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام فيذهب بالى إلى البيت المشهور هذا :

والحسن يظهر فى شيأين رونقه

بيت من الشعر أو بيت من الشعر

لعل البيت للامير عبد القادر الجزائرى وقد كان شاعراً وأبلغ ما جاء به فى نظرى من الشعر اعماله بداية ونهايةوان لم يكن البيت له فلرجل من جنسه عربى أصلا وتربية وثقافة لا من شبه ابن خلدون مثلا لوكان المؤرخ العظيم ناظما أذكر ابن خلدون ولا أرى فيه ما يرى لسان العرب الاحرار عبد الرحمن الكواكبى ، وانما اخصص الكلمة بما ذكرت لجمعها بيت الشعر إلى بيت الشعر ان لم يكن الداعى الى ذلك التقارب فى اللفظ فقط ولا أظن .

الخيام فى الحقيقة لا تستحق المنزلة التى جعلها الشاعر فيها . أقول هذا وأنا وليد الخيام . بيد انى لا اخال القصور والسرايات على ما فيها من رفاهية وحضارة ونعمة وسؤدد قال فيها القائلون من اية لغة كانت ما قالته العرب فى منازلها الشعرية اذ ملأوا الدنيا بذكرها وجعلوا فى استارها كل ما كانت نفوسهم تهب اليه من عشق وجود وفروسية وعزة نفس واكرام للضيف ووفاء بالوعد وحماية للحريم وغير ذلك من الاخلاق السامية حتى صار كل من تربى فى احضانهم وأمضى شبابه فى التغنى باناشيدهم كلما مرت الخيام على مخيلته بدت له الخيام نفسها له شعراً .

ولكن كيفما كانت الخيام وكيفما كان رأينا فيها فان اخطأ صاحب البيت فى نظر من لايرى رأيه فى بيت الشعر فقد أصاب فيما بعد ذلك من كلمته ولا معارضة فى أن الشعر أجمل مسكن للحسن يظهر فيه رونقه ويتجلى بهاؤه .

وانما الحسن درجات ومن الحسن ما يفوق الشعر ولاجل هذا (حالة ان ءاداب العرب جلها فى المديح) لا نجد فيها سوى قصائد قليلة جدا فى النبى صلى الله عليه وسلم

سئل بعض الشعراء عن سبب سكوتهم فاجابوا : ان النبى صلى الله عليه وسلم أعلى من ان يمكن للشعر مدحه أصاب هؤلاء اذ سكتوا وأصاب من خالفهم اذ لم يسكتوا سكوتهم ولعل القول الفصل فى هاته المسألة كما فى غيرها من المسائل الاخذ بالوسط

أقول ان مدح خير الخلق على المسطرة الجارية عبث ظاهر بل حط من منزلته اذ الثناء كيفما كان لا يصل اليه ولا يمكن لاشعر شاعر ان يصور محاسنه وهى ارق من الشعر واوسع من الخيال فلا أظن احدا من الادباء يقرأ مثل هذا البيت من ميمية البصيرى رضي الله عنه

وراودته الجبال الشم من ذهب
عن نفسه فأراها أيما شمم

ولا يسلم ان البصيرى أخطا فى مدحه اذ ان ممدوحه أكبر من الدنيا وما فيها وأكبر من كنوزها وما تحتوى عليه واكبر من السماوات والارضين ولا يخطر بالبال ان نعد ترفعه عن الذهب واحتقاره للمال امرا عظيما فى حقه حتى يذكر ذلك عنه على سبيل الثناء

اما اذا فهم الشاعر ان ممدوحه لا يحتاج الى الشعر وان الشعر لا يزينه بل هو الذى يزين الشعر. واذا فهم ذلك التصق بالارض وجعل خده على التراب تعظيماً واجلالاً ثم اكتفى بوصف مايراه واقتصر على ذكر مايبصره من الرفعة والجلال فان القول على هذه الصفة محمود مشكور

قالت ام المومنين عائشة وأبوها أبو بكر الصديق على فراش الموت يغمض

وابيض يستسقى الغمام بوجهه
ربيع اليتامى عصمة للارامل

فنظر اليها وقال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قول الحطيئة

متى تاته تعشو الى ضوء ناره
تجد خير نار عندها خير موقد

فقال مثل ما قال الصديق

وقال عباس بن مرداس :

رأيتك ياخير البرية كلها
نشرت كتابا جاء بالحق معلما

ونورت بالبرهان امراً مدمسا
واطفأت بالبرهان ناراً مضرما

فأجاد اذ اقتصر على الحكاية واكتفى بالاشارة

وقد بلغ البصيرى نفسه حد الكمال كلما نهج هذا المنهج واتبع هذا السبيل مثل قوله فى وصف ممدوحه

ومبلغ العلم فيه انه بشر
وانه خير خلق الله كلهم

وقوله فى الرسالة :

لم يمتحنا بما تعيا العقول به
رفقاً علينا فلم نرتب ولم نهم

وقوله فى ابدية الاسلام :

بشرى لنا معشر الاسلام ان لنا
من العناية ركنا غير منهدم

***

لا أقصد بهاته الكلمة الانتقاد وانما أقصد الاشارة فقط الى اللبس الذى ينبغى للآداب العربية ان تتحلى به فى هذا العصر المتصف بالحياة فى كل شيء . والحق ان القصائد التى بايدينا سلك أهلها نفس المسلك الذى بينته . ولاجل ذلك فهى جديرة بكامل الاستحسان الذى لاقته من الدوائر العلمية .

كتب أحد علماء الهند يدعو الى اقامة حفلات عامة لذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم فاجابه شيخ الجامع الازهر بكتاب يذكر فيه أثر البعثة المحمدية على المجتمع الانسانى فى مقدمة الحسنات التى يجب على العالم تقديرها ويتحتم عليه تمجيدها

تكثير الزاد . ونبع الماء . وسجود الشجر . وانشقاق القمر . وتضعضع ايوان كسرى . وغير ذلك من الوقائع حقاً معجزات ولكن اكبر منها اخراج النور من الظلام

وتزويد العقول بالحكم وتغذية الارواح بهدى الدين واكبر منها اسقاط معالم الشرك وتهديم صروحه وتنضيب مياهه واكبر منها ايضا تمزيق الحجب التى نسجتها لاجيال بين الخلق وخالقهم وكسر القيود والسلاسل التى كانت تؤلم الانسانية فى ذاتها وفى أعز الاشياء عندها ضميرها واللسان واكبر منها حفظ الذكر المنزل من طوارىء الدهر وحوادث الزمان

هاته هى المعجزة التى يجب ان لا يخلو مديح منها. أما وقد اعطاها بعض شعرائنا حقها من الذكر فانا لهم من الشاكرين .

***

أصاب اصحاب القصائد هاته السنة فى الموضوع واصابوا ايضاً فى المنهج الذى نهجوه لمدح صاحب الجلالة الملك المؤيد بالله .

قال الربيع صاحب المنصور العباسي : قلت يوما للمنصور ان الشعراء ببابك وهم كثيرون طالت ايامهم ونفذت نفقاتهم . فقال اخرج اليهم فاقرأ عليهم السلام وقل لهم من مدحنى منكم فلا يصفنى بالاسد فانما هو كلب من الكلاب ولا بالحية فانما هى دويبة منتنة تاكل التراب ولا بالجبل فانما هو حجر اصم ولا بالبحر فانما هو عطائط لجب ومن ليس فى شعره هذا فليدخل ومن كان فى شعره فلينصرف فانصرفوا كلهم الا ابراهيم بن هرمة قال أنا له يا ربيع فادخلنى فأدخله فلما مثل بين يديه قال المنصور يا ربيع قد علمت أنه لا يجيبك احد غيره هات يا ابن هرمة فانشده قصيدته التى يقول فيها

له لحظات عن جفا فى سريرة
اذا كرها فيها عذاب ونائل
لهم طينة بيضاء من آل هاشم
اذا اسود من كرم التراب القبائل
اذا ما اتى شيئا مضى كالذى أتى
وان قال انى فاعل فهو فاعل

فقال حسبك ههنا بلغت هذا عين الشعر .

كلمة بها جدير كل من اهمل من شعرائنا الاوصاف التى تطلق على ممدوحهم كما تطلق على غيره او لا تطلق بالكلية على انسان فى الوجود كيفما علت درجته وارتفعت رتبته فمالوا الى طريقة التحقيق والتمييز ذاكرين لمولانا المحبوب اعتناءه بتنظيم المدارس واهتمامه بالمعاهد الدينية وجهوده فى سبيل ادخال المستحسن من النظامات العصرية على الايالة وغير ذلك من الاعمال الاصلاحية المخلدة لاسمه فى التاريخ مقرونا بنهضة مباركة وحركة ميمونة اطال الله بقاءه وأيد سعيه .

م

الحكم على الشيء

فرع تصوره